من آثار العرب الزراعية

في الأندلس

لم تقتصر المدنية العربية في الأندلس على العلوم الأدبية والتاريخية والفلسفية والدينية ، بل كانوا يعتنون بالزراعة اعتناءً زائداً ، يدرسون نظرياتها ويطبقونها ، ويدرسون أنواع النباتات الطبية وخواصها ، وكيفية تحضيرها ويدرسون المواشي وتربيتها ...

وقد كانت دراستهم مبنية على أساس علمي لا على الوهم والخيال .

وكانوا يترجمون الكتب اليونانية والنبطية وغيرها من الكتب القديمة ويقتبسون منها ما يجدونه موافقاً ، ويطبقون النظريات وفاقاً للاقليم والأرض ، وعلاوةً على ذلك فقد اعتنوا بالتأليف ، وألفوا كتب قيمة للغاية ضاع أكثرها ولم يبق منها الا النزر اليسير ، أهمها كتاب الفلاحة لابن العوام الذي ذاع صيته وترجم الى اللغة الافرنسية .

ويعترف علماء الافرنج بفضل العرب على أنواع العلوم ، وبفضلهم على العلوم الزراعية .

ولا نغالي اذا قلنا بان أوربا اقتبست المبادئ الزراعية المبنية على أساس التجربة والعلم من العرب في الأندلس .

واثباتاً لذلك نذكر ما قاله علماء الغرب عن رقي العرب في الزراعة .

قال الدكتور غوستاف لوبون في كتابه « حضارة العرب » :

« وقد برع العرب في الزراعة براعتهم في العلوم والصناعات ، وليس في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

اسبانية الحاضرة من أعمال الري خلا ما أتمه العرب ، وقد أدخل العرب في حقول الأندلس الخصبة زراعة قصب السكر والتوت والأرز والقطن والموز ... الخ وأصبحت اسبانيا وهي قاحلة اليوم ماعدا بعض الأراضي في جنوبها فانها جنة واسعة بفضل أساليب العرب الزراعية الفنية » .

بحث علماء الطبيعة من العرب في النباتات أيضاً ولا سيما في تطبيقاتها الطبية وقد أنشأوا حدائق نباتات زرعوا فيها أندر ما عرفوه من أنواعها وأكثر طرافة .

وكانت غرناطة تشتمل في القرن العاشر حديقة عظيمة للنبات ، وكان لعبد الرحمن الأول مثلها بالقرب من قرطبة .

وأوفد عبد الرحمن الأول جماعة من علماء الطبيعة الى الشام وغيرها من أقطار آسيا ليأتوه بأعز النباتات وأجودها .

وثبت أن العرب هم أول من أسسوا حدائق النبات المختلفة . وهم أول من أدخلوا النباتات الطبية المختلفة مما لم يعهد له أثر في الأندلس وقد أوفدوا لذلك بعثات زراعية من علماء النبات للتجول في مختلف البلدان وجلب ما يمكن جلبه لزراعته في الأندلس ، والعمل على تأقلمه فيها .

وكانت لهم خبرة زائدة بزراعة النباتات الطبية وخواصها وقد ألفوا بهذه الناحية كتباً عديدة سوف نذكر منها المشهور والمذكور في كتب التاريخ .

واهتم علماء الزراعة في الأندلس بري البساتين والحقول بصورة فنية ، وطرق الري التي تستعمل الآن في اسبانية هي الطرق التي كان يستعملها العرب ، وان بساتين البرتقال في بلنسية لا تزال تسقى من الأقنية التي أنشأها العرب منذ ألف سنة ، وطريقة الري المتبعة في مقاطعة بلنسية حتى الآن هي طريقة القناة الرئيسة والأقنية الفرعية الموزعة وهي طريقة العرب ، ولا تزال في القني الأصلية أحجار مغروزة على جانبي القناة لإدخال أحجار مبسوطة لسد القناة وتحويل مجرى المياه الى احدى القنوات الفرعية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومن آثار الزراعة العربية في الأندلس ، قناة خوكار وشوكار ، طولها ثلاثون كيلومتراً وعرضها ثلاثة أمتار ، تنقل المياه من نهر خوكار ويوزعها على أراض واسعة بين بلنسية وقربتي : السوقية والصيرة ، وهو يسقي حقول الأرز الخصبة وينتهي في مستنقع البوفيرا . وأخبرني اسباني بلنسي ان هذه القناة من عمل العرب وهي كباقي الأقنية في غاية الاتقان والاستقامة .

وهناك أقنية أخرى كثيرة في جميع أرجاء اسبانية على عهد العرب وكلها تدل على تقدمهم في هندسة الري .

والمعروف عن العرب أنهم هم الذين أدخلوا زراعة النخيل والرمان والارز وقصب السكر والقطن والترمس والنارنج (أبوصفير) ، والبرتقال مورد ثروة في اسبانيا الآن ، ولعلهم هم الذين أدخلوا زراعة الزيتون وزراعات أخرى كثيرة ، ولا تزال أحراج النخيل العربية بين غرناطة ومُرسية تذكرنا بنشاط العرب العجيب يومئذ .

وهناك أثر عظيم من آثار العرب في زراعة الأندلس ، وهو فن هندسة الحدائق والرياض الخاصة والعامة ، فقد نشأ في اسبانيا ذوق عربي في تنسيق الحدائق كان ذا ميزات جمعت بين الرقة والبساطة .

أما نباتات الأزهار فكانوا يزرعونها في (قوارير) ليسهل نقلها وبذلك كانوا يغيرون شكل الحديقة ومناظرها كيفما أرادوا وعندما يريدون . وكان يتألف من البلاط والقرميد الملون ، قسم فني في الجنينة . فالعيون والأحواض والمقاعد والممرات والأدواح كل ذلك يزخرف بالقرميد الملون بألوان مختلفة ، وكان ذلك يبعث في وسط الحديقة جمالاً سحرياً خاصاً .

أجمل حديقة صغيرة في قرطبة ، هي حديقة المركيز دوفيانا وفيها قسم لأشجار البرتقال ، وقسم للأزهار المزروعة في قوارير ، وقسم آخر فيه عدد من شجر السرو الجميل ، مع عين في الوسط ، وهذا بالطبع طراز عربي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وفي اشبيلية بعض حدائق شهيرة منها حديقة القصر الملكي التي تعد أجمل منتزه يتخيله الانسان .

وفي رندة (بستان مسكن الملك العربي) كما يدعونه حتى الآن ، وفي غرناطة جنة العريف الذائعة الصيت .

كان العربي يرى في حديقته جزءاً متمماً لبنيه وحياته العائلية ، فكان فيها نفس الوحدة والخلوة والاستقلال كأنه في بيته .

ولا يسع المتفرج أن يترك هذه الخلوات المنعشة دون أن يصيبه شيء من الحزن ، يرى هذا الحقل الخصب الذي بذره حصده غيره ونعم به .

وازدهرت زراعة الزيتون ازدهاراً عظيماً في الأندلس ، ونيف عدد أشجار الزيتون في اسبانية أيام الدولة العربية على ١٢٥ مليون شجرة ، وكانت عنايتهم عظيمة ويستنتج من محاضرات العالمين : جان ، والدكتور نرولا في نانسي ، انه كان في قرطبة وضواحيها خمسة وعشرون نوعاً من الزيتون . وقد درس العرب هذه الأنواع وعملوا على نشرها ، وعنهم اقتبس علماء اللاتين هذه الأوصاف وصنفوها في دراساتهم وكتبهم . لا شك بأن العرب قد كتبوا كثيراً في زراعة الزيتون ، وبقية الأشجار المثمرة ، ودرسوا أنواعها ، وليس شك في أن هذه الدراسات فقدت في أثناء انسحاب العرب من اسبانية ، والتاريخ يقول ان علماء اللاتين نقلوا كثيراً من دراسات العرب الى كتبهم .

علماء الزراعة العرب في الأندلس

كان في الأندلس ابان الحكم العربي علماء من العرب في الزراعة ، وكان لهم كتب عديدة ، ونشرات كثيرة ، وقد قاموا بتجارب زراعية أفادت العالم وساعدت على ادخال علم الزراعة الصحيح الى أوربا وغير أوربا .

وكثر علماء الزراعة في الأندلس وألفوا كتباً عديدة نذكر المؤلفين الذين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عثرنا على أسمائهم في بطون كتب التاريخ المتداولة ، ممن لا تزال كتبهم محفوظة في بعض دور الكتب العامة .

منهم ابو زكريا يحيى بن محمد ابو أحمد بن العوام والمعروف بابن العوام كان حياً في اشبيلية في القرن الثاني عشر الميلادي ، وقد قام بتجارب زراعية كثيرة في جبل الأشرف بالقرب من مدينة اشبيلية ، وألف كتاباً بالزراعة سماه كتاب الفلاحة وقد ترجم الى عدة لغات ، وترجمه الى الافرنسية « كالامان موبلا » في ألف وخمسمائة صفحة باللغة الافرنسية . منه نسخة أصلية في مكتبة الاسكوريال وأخرى في مكتبة ليد وثالثة نافصة في المكتبة الوطنية في باريس .

قال ابن خلدون في مقدمته في باب الفلاحة ما يلي : « واختصر ابن العوام كتاب الفلاحة النبطية على هذا المنهاج وبقي الفن الآخر منه مقفلاً » .

أي انه ترك السحر والطلاسم ...

وكتب ابن الخوام : ان ابن العوام ألف مختصراً في الزراعة النبطية ، حيث أغفل فيه جميع المسائل السحرية والخيال بل أكثرها .

وفي دائرة المعارف الاسلامية : ابن العوام « ابوزكريا يحيى بن محمد بن احمد ابن العوام الاشبيلي ، مصنف كتاب كبير في الفلاحة اسمه كتاب الفلاحة ، ولا نكاد نعرف شيئاً عن حياة هذا المؤلف ، وكل ما نعرفه انه كان يعيش في نهاية القرن الثاني عشر وان أصله من اشبيلية وقد ذكره ابن خلدون دون ان يعرف أنه موجز كتاب الفلاحة النبطية .

وينقسم الكتاب الى أربعة وثلاثين فصلاً ، وهو مؤلف من جزئين يدرس الجزء الأول طبيعة الأراضي ، والأسمدة المختلفة ، والمياه ، وكيفية تنظيم الجنائن ، وزراعة الأشجار المثمرة وتطعيمها وريها وتسميدها وحفظ ثمارها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ويبحث الجزء الثاني في الحبوب والخضروات والنباتات العطرية والزينة والفوائد التي تنتج عنها وتربية المواشي والدجاج ، والنحل بصورة فنية رائعة .

ومنهم ابو عبد الله محمد بن ابراهيم بن الفاضل الأندلسي : لم نقف على سيرته اذ لم تثبت المعلومات التي لدينا عنه لكن م . ماير يقول بأنه عاش سنة ٤٦٧ هـ أو ١٠٧٤ ميلادية لأن ابن الحجار ذكر انه كان في ذلك العصر .

وقال الغزيري انه ألف كتاباً ضخماً عن الزراعة ، وقد ذكره ابن العوام في كتابه الفلاحة ، واقتبس منه الشيء الكثير .

ومنهم أبو عبد الله ابراهيم بن محمد بن البصل الأندلسي : ذكره ابن العوام في كتابه الفلاحة أربع مرات مع اسم كتابه (القصد والبيان) .

ولا يعرف عنه الا انه مؤلف كتاب قيم في الزراعة .

ومنهم ابو عمر احمد بن محمد الحجاج : يقال بانه ولد في اشبيلية وعاش فيها وقد ذكره ابن العوام في فاتحة كتابه وانه ألف كتاب (المغني) عام ٤٦٦ هـ (١٠٣٢) م وهو كتاب كبير مفيد استعان به ابن العوام في وضع كتابه الجليل .

ومنهم الحاج احمد الغرناطي : ألف كتاباً مختصراً في الزراعة وعاش في القرن الثاني عشر (٥٥٣ هـ و ١١٦٠ م) .

ومنهم أبو الخير الاشبيلي : يعد من أشهر علماء الزراعة ، قام بتجارب زراعية عديدة جديدة ، وألف كتاباً زراعياً لم نهتد الى اسمه ، ولم نعلم شيئاً عن حياته ومماته ، وما هي التجارب التي قام بها .

وقد ذكره ابن العوام صاحب كتاب الفلاحة مرات في كتابه ، واقتبس الشيء الكثير من تجاربه الزراعية .

ومنهم ابو العباس احمد بن محمد مفرج النباتي الأندلسي : ألف كتاباً في علم النبات سماه « الرحلة » امتاز فيه بدقة الملاحظة ذكر فيه ما رآه من النبات في الأقطار

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

التي زارها ولقد بذّه في ذلك بلا ريب تلميذه ابو محمد عبد الله بن احمد ابن البيطار . فقد زار بلاد الروم وبلاد الشام ومصر ليدرس النبات في بيئته . توفي نحو ٦٣٨ هـ — (١٢٤٠ م) .

ومنهم ابن عبدون : عاش بين القرن الحادي عشر والثاني عشر في مدينة اشبيلية .

وله مخطوطتان محفوظتان في مكتبة مراكش ومكتبة مكناس ، ففي المخطوطة الأولى يتناول المؤلف شتى الأوضاع العامة التي تطبق في اسبانية وسائر البلدان والمقاطعات الاسلامية في القرون الوسطى . وفي المخطوطة الثانية يبحث في الأسس الزراعية والاجتماعية في مدينة اشبيلية وكان يسكنها .

ويقول ابن عبدون في بحثه عن الأوضاع المدنية عن اشبيلية ، انه يجب على الأمير الأندلسي الحاكم تشجيع الزراعة بقدر استطاعته ، ويجب عليه أن يكون قدوة في استغلال أراضيهم . ويقول ان الزراعة هي الركن الأساسي لدفع الضرائب التي تغذي مالية الدولة .

وقد تطرق في أبحاثه الى تحصيل الضرائب الزراعية وتخمين الأراضي الزراعية . وضرورة معاملة المزارعين برفق وعدل ، ورأى أن يصانوا لاستغلال الأراضي ، ويقول بأن الزراعة هي أساس المدنية ومنها تنبثق كل الحياة .

عادل أبو النصر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net